يعقوب، «أخو الربّ»، والكنيسة في أوّل عهدها
قراءة في كتابَين حديثَين*

الدكتور رولان طنب**

مَن كان يعقوب «أخو الربّ»، الذي قُتل ثلاثين سنة بعد موت يسوع ووُصف غالبًا بأنّه ابن عمّه؟ كان شخصيّةً سادت كنيسةً حديثةَ العهد ومترسّخة ترسُّخًا شديدًا في يهوديّة زمنها، وأمينة للشريعة الموسويّة، فكان يعقوب يفوق بطرس جاهًا وسلطةً ويعارض بولس، لكنّ أفكار بولس تغلّبت في آخر الأمر وأدّت إلى الفصل بين المسيحيّة واليهوديّة.

إنصرف بِرْنْهايْم (Bernheim) إلى إعادة اعتبار حاسمة إلى رجل لم يقدَّر حقّ قدره وبدا محفوفًا بالغموض، في خاتمة تحقيق يستحوذ على الانتباه حول أوائل الكنيسة. فهو يقترح نظرة مجدَّدة إلى الفريق «المسيحيّ المتهوِّد»، ويمكّننا أن نعود إلى اكتشاف كنيسة «لم تكن سائرة في اتّجاه التاريخ».

الكتّاب والمصادر

يروي المؤرِّخ اليهوديّ فلافيوس يوسيفس (٣٧-١٠٠) إعدام «يعقوب، أخي يسوع الملقَّب بالمسيح، المتَّهَم بمخالفة الشريعة، عن يد عظيم الكهنة حَنَنْيا»، في السنة ٦٢م. «فاغتاظ الذين كانوا أشدّ سكّان أورشليم اعتدالًا وكانوا يحفظون الشريعة على أدقّ وجه»(١)، وهذا ما أدّى إلى فصل حَنَنْيا، بالرغم من انتمائه إلى أسرةٍ ذات نفوذ وإلى سلالة ذات جاه من عظماء الكهنة. ويجمع أهل

(*) (يعقوب أخو الربّ) Pierre - Antoine BERNHEIM, *Jacques, frère de Jésus* Editions Noêsis, Paris, 1997, 390 pp.
(مهد المسيحيّة) Etienne TROCMÉ, *L'enfance du christianisme* Editions Noêsis, Paris, 1997, 280 pp.

(**) أستاذ في كلّيّة الطبّ التابعة لجامعة القدّيس يوسف، وخرّيج المعهد الكاثوليكيّ في باريس ومعهد اللاهوت البروتستانتيّ في إستراسبورغ.

(١) Flavius JOSÈPHE, *Antiquités Juives* 18, 63-64, Paris, Librairie Ernest Leroux, 1929.

الخبرة على أنّ ما كتبه يوسيفس هو أصليّ وليس ثمرة تحريف لاحق. فيبدو يعقوب شخصًا ذا شأن، علمًا بأنّ فلافيوس يوسيفس لا يذكر بطرس ولا بولس ولا شخصًا آخر من أشخاص الكنيسة في أوّل عهدها.

هذا وإنّ الإنجيليَّين متّى (١٣/ ٥٥) ومرقس (٦/ ٣) يذكران أسماء إخوة يسوع الأربعة، وهم يعقوب ويوسى (يوسف) ويهوذا وسمعان. وكلاهما يذكران يعقوب أوّلًا.

وتبرز أيضًا أهمّيّة دوره من عدد المرّات التي يشير إليه بولس خصمه الأكبر في رسائله. فإنّ ذكره يأتي في الكلام على أوائل الذين حصلوا على تراائيات القائم من الموت (١ قور ١٥/ ٧). ثمّ إنّ رسائل بولس، ومن الراجح أنّها أقدم أسفار العهد الجديد، لأنّها حُرِّرت في الخمسينات، ترينا يعقوب، «أخا الربّ»، أحد رؤوساء الكنيسة في أوّل عهدها. فقد ورد ذكره ثلاث مرّات في الرسالة إلى أهل غلاطية: يوصَف بأنّه، إلى جانب بطرس ويوحنّا، «أحد أركان الكنيسة»، وهو الذي يُذكَر أوّلًا هنا أيضًا. وينوّه بولس بالدور الذي قام به في «مجمع أورشليم»، وعند وقوع «حادثة أنطاكية»، وهي أحداث جازمة مكّنت من البتّ هل يجب أم لا أن يَخضع المهتدون المتحدّرون من أصل غير يهوديّ للشريعة الموسويّة.

وفي **أعمال الرسل**، يظهر أيضًا يعقوب رئيس كنيسة أورشليم، فهو الذي ترأس «مجمع أورشليم» وهو الذي حَسَمَ المناقشات (رسل ٢٥/ ٦-٢٩).

وجاء الأدب المسيحيّ اللاّحق أكثر إسهابًا، فخلط بلا رويّة بين التاريخ والأسطورة. فيسلّم الكاتب بِرْنهايم «بأنّه لا يمكننا أن نروي سيرة يعقوب، كما نستطيع أن نفعله بشجاعة وتخيُّل في رواية سيرة بولس». وهو يستشهد بمؤلّفات غير قانونيّة تصف بإسهاب تلك الشهرة الواسعة وشبه الأسطوريّة التي تمتّع بها هذا الشخص في القرون الثلاثة الأولى.

ويشدّد الأدب الإقليمنضسيّ المنتَحل على أوّليّة يعقوب «الموصوف بأسقف الأساقفة»، أي «بالبابا الأوّل، بغضّ النظر عن استباق الوقت»، كما يشير بِرْنهايم إليه.

وفي أحد النصوص المنحولة، وهو **إنجيل العبرانيّين**، يُنعم المسيح القائم من الموت على يعقوب بامتياز التراائي الأوّل. وفي نظر إقليمنضس الإسكندريّ (حوالى السنة ٢٠٠)، أصبح يعقوب السلطة العُليا في الكنيسة بعد موت المسيح. والقدّيس إيبفانيوس السلامينيّ (٣١٥-٤٠٣)، في كتابه **في الرجال**

المشهورين، يخصّه بالنبذة الثانية بعد النبذة المختصّة ببطرس. وأمّا أوسابيوس القيصريّ (حوالى السنة ٣٢٠)، فإنّه يلفت النظر إلى صدارة «أخي الربّ»، يعقوب، الذي وُلّي على إدارة شؤون الكنيسة مع الرسل. ومنذ أيّام الربّ حتّى يومنا، يسمّيه جميع الناس «البارّ».

وهناك عدّة نصوص غنوصيّة، من التي وُجدت بين مخطوطات نجع حمادي، تعترف ليعقوب بوضع متفوّق في أوّل عهد الكنيسة. وفي **إنجيل توما**، يشير يسوع إلى «يعقوب البارّ» كإلى مَن يجب أن يخلفه، وفي **رسالة يعقوب المنحولة**، يكشف يسوع تعليمه ليعقوب خاصّةً ولبطرس. وفي **رؤيا يعقوب المزدوجة**، يسلّم يسوع إلى يعقوب تعليمًا سرّيًا، غنوصيًا بكامله.

وفي نظر بِرْنْهايْم، فإنّ «الصدارة» المعترَف بها ليعقوب في التقاليد المسيحيّة المتهوّدة والكاثوليكيّة والغنوصيّة هي أمر يلفت الانتباه إلى أقصى حدّ (..). ومع ذلك، فإنّ «أخا الربّ» يبقى مجهولًا إلى حدّ بعيد من قِبَل أغلبيّة المسيحيّين. إنّ المساوي لبطرس وبولس، لا بل المتفوّق عليهما في انطلاقة الكنيسة، تراه اليوم يقلّ أهمّيّة عن ذلك الذي يعدّه الكاثوليك أوّل بابا وعن ذلك الذي يُجمع الناس على وصفه «بأمير اللاهوتيّين».

لا شكّ أنّ سلطة يعقوب في الكنيسة، التي تستند إلى سلطة «إخوة الربّ»، تتّسم بطابع سُلاليّ، كالخلافة في الإسلام. ومن جهة أخرى، فإنّ خليفة يعقوب على رأس كنيسة أورشليم كان سمعان، ابن عم يسوع. ومع ذلك، يجب الإشارة إلى أنّ يعقوب، الذي كان يُعرف بأنّه أخو يسوع (أو أخوه من أبيه)، أصبح يُعدّ، بتأثير من القدّيس هيرونيمس، أحد الرسل، يعقوب الأصغر، الذي ورد ذكره في مر ١٥/٤٠. وقد احتفظت الكنيسة الكاثوليكيّة بهذه الهويّة، خلافًا للكنائس الأرثوذكسيّة التي تحتفل بذكرى كلّ واحد منهما على حدة.

فالكاتب يحاول أن يجيب على الكثير من التساؤلات التي تثيرها النصوص:

- أيًا كانت صلة القرابة بين يعقوب ويسوع؟ هل كان أخاه، كما يَدعو إليه تفسير حرفيّ للعهد الجديد، أو ابنَ عمّه، كما يفترضه التقليد الكاثوليكيّ في خطى هيرونيمس، أو أخاه من أبيه، كما ظنّه الكثير من آباء الكنيسة؟ وإلى أيّة درجة ساعدت صلة القرابة بيسوع وصولَه إلى رأس الكنيسة؟
- وأيًا كان نوع علاقاته ببطرس؟

- وهل أيّد نشاطَ بولس الإرساليّ، كما توصي به أعمال الرسل، أم هل اتّخذ موقفًا أشدّ تحفّظًا، لا بل عدائيًّا، كما تلمّح إليه بعض رسائل بولس والتقليد المسيحيّ المتهوّد؟
- ولماذا أثار إعدامه عن يد عظيم الكهنة حنَنيا احتجاجَ الفرّيسيّين وفصل عظيم الكهنة؟
- وماذا حلّ بالمسيحيّين المتهوّدين بعد موته، وكيف يفسَّر أنّ النسيان قد طواه في التقليد المسيحيّ؟

«إخوة» يسوع

يعرض الكاتب بتوسّع ودقّة مشكلة إخوة يسوع وأخواته. وهو يحلّل ويشرح، في ٢٢ صفحة، جميع النظريّات المطروحة، ويحاول أن ينتزع يقين القارئ بالاستناد إلى الشهادات الكتابيّة والحجج المبنيّة على فقه اللغة.

في عدّة مرّات تذكر الأناجيل إخوة يسوع وأحيانًا أخوات يسوع، كما نرى ذلك في الحادثة التي يرويها مرقس في ٣/ ٣١. وإذا صحّ أنّ متّى ومرقس يفيداننا عن عدد الإخوة وعن أسمائهم، فإنّ عدد الأخوات وأسماءهنّ لا تُروى في أيّ نصّ من النصوص. وفي أغلب المصادر المأخوذة من الأناجيل ومن أعمال الرسل، يرتبط ذكر إخوة يسوع بذكر مريم أمّه. وفي بعض الفقرات، يبدو أنّ إخوة يسوع يعارضون تلاميذه صراحة. وفي هذه الحالات، ليس من السهل أن تتّخذ كلمة «أخ» معنى الرفيق المجازيّ.

ومن جهة أخرى، لا يخفى علينا أنّ استعمال لفظة «أخ» بمعانٍ واسعة في الشرق الأدنى القديم والحديث يتضمّن مفهومَي الأخ من أبيه أو أمّه، والقريب. ففي العهد القديم، يُسمّى أبناء يعقوب الاثنا عشر «إخوة»، مع أنّهم من أربعة زواجات مختلفة (تك ٣٧/ ٤)، كما أنّ إبراهيم يعدّ نفسه «أخا» ابن أخيه لوط (تك ١٣/ ٨). ثمّ إنّ مفهوم «ابن عم» أو «ابن خال» لا يعبَّر عنه بكلمة واحدة في العبريّة (ولا في العربيّة). فالعهد القديم يستعمل عبارة «ابن عم» (في العبريّة: «بن دود»). أمّا اليونانيّة: فتجد فيها لفظة «أدِلفُس» ἀδελφος التي تُستعمل استعمالًا واسعًا للدلالة على الأخ (أو الأخ من أبيه أو أمّه)، في حين تُستعمل لفظة «أنِپسيوس» ἀνέψιος للدلالة على «ابن العم» أو «ابن الخال». فالقدّيس بولس يستعملها في الكلام على مرقس، الذي هو ابن عم برنابا (قول ٤/ ١٠).

وهذه الأحوال تتحكّم في تفسير روابط القرابة القائمة بين يسوع والذين يسمّيهم العهد الجديد إخوته وأخواته. وهناك ثلاث نظريّات:

النظريّة الأولى، وهي الأقرب إلى المعنى الطبيعيّ، تتلخّص في الاعتقاد بأنّ المقصود هنا هم إخوة وأخوات تجمع بينهم رابطة الدم، أي أبناء وبنات مريم ويوسف، المولودين بعد يسوع. وهذه النظريّة يرتبط بها اسم هِلْفيديوس (Helvidius)، وهو أحد المدافعين عنها في نهاية القرن الرابع، مع أنّ هناك مَن أثبتها قبل هذا التاريخ، ولا سيّما طرطليانس (+ ٢٢٥). ولقد عرفت رواجًا جديدًا في نهاية القرن الثامن عشر. أمّا في أيّامنا، فإنّها تتمتّع بتأييد أغلبيّة المفسّرين البروتستانت، إلى جانب عدّة مفسّرين كاثوليك بارزين. فالدومنيكانيّ فرنسوا رِيفُوليه (Refoulé)، مدير مدرسة أورشليم الكتابيّة السابق، الذي يستشهد به الكاتب، يقول: «في نظر المفسّر والمؤرّخ، من الراجح أنّ إخوة يسوع وأخواته هم إخوة وأخوات تجمع بينهم رابطة الدم». ذلك بأنّ كلمة «أدِلْفس» اليونانيّة، التي تَرِد في جميع الفقرات الواضحة تدلّ عادةً على إخوة مولودين من أب واحد وأمّ واحدة، أو على الأقلّ، من أمّ واحدة. فيبدو المعنى المجازيّ مستبعَدًا، ومن جهة أخرى، يظهر إخوة يسوع برفقة مريم دائمًا.

والنظريّة الثانية، وأشهر المدافعين عنها هو إيفانيوس السلامينيّ (القرن الرابع)، تزعم أنّ إخوة يسوع وأخواته هم أولاد يوسف، وُلدوا من زواج أوّل. وبما أنّها لا تتعارض مع بتوليّة مريم الدائمة، وتستند إلى استعمال كلمة «أدِلْفس» وإلى حضور الإخوة بالقرب من مريم، فهي تبقى الافتراضَ الذي يفضّله كثير من الكنائس الشرقيّة. غير أنّها تعسّر علينا أن نفهم لماذا يشدّد لوقا على بِكْريّة يسوع من حيث ميراث مملكة داود.

أمّا النظريّة الثالثة، التي تجعل من إخوة يسوع وأخواته أبناء عم أو أقارب، فهي ترتبط بالقدّيس هيرونيمس الذي تهجّم بعنف، في مؤلّف بعنوان ردّ على هِلْفيديوس، على نظريّة الإخوة الذين تجمع بينهم رابطة الدم. يذكّر بِرْنْهايْم بأنّ بولس حرّر رسائله باليونانيّة (ومن الراجح أنّها كانت لغة مولده) ويتساءل «لماذا بولس، الذي كان يعرف يعقوب معرفة شخصيّة وكان من المفترَض أن يعرف نوع قرابته الصحيح مع يسوع، لم يستعمل كلمة «أنِبْسيوس»، إن كان إخوة يسوع أولاد عمّه»؟. ومن جهة أخرى، يصف فلافيوس يوسيفس يعقوب بأنّه «أخو يسوع»، مع أنّ يوسيفس كثيرًا ما يستعمل كلمة «أنِبْسيوس» في مؤلّفاته.

من الواضح أنّ نظريّة هِلْفيديوس هي التي يفضّلها كاتبنا. نذكر، في هذا الصدد، ما كتبه مؤخّرًا لاهوتيّ كاثوليكيّ آخر، ميشال كينيل[٢] (Quesnel): «إنّ

---

(٢) Michel QUESNEL, *Le Monde de la Bible*, 1997, 105, 25.

الأفضليّة التي تُمنَح لإحدى النظريّات لا تستند إلى حجج تاريخيّة، بل إلى خيارات لاهوتيّة ومذهبيّة».

الجماعة المسيحيّة المتهوّدة

كان يعقوب ألمع رمز وممثّل لكنيسة حديثة العهد ومتأصّلة في التقليد اليهوديّ. فإنّه كان يَعدّ يسوعَ العاملَ الأخيريّ (eschatologique) الذي اختاره يَهوه للإنباء بحلول ملكوت الله الوشيك ولدعوة بني إسرائيل إلى التوبة. وكان يعقوب يعتقد بأنّ ما وُعد به إسرائيل بدأ يتحقّق عن يد يسوع. وإن استثنينا اعتقاده بوضع يسوع ورسالته الفريدَين وبعضَ الممارسات الطقسيّة الخاصّة، فلم يكن فيه أيّ شيء يميّزه عن الكثير من يهود زمنه. فلو أخبرناه بأنّه كان ينضمّ آنذاك إلى ديانة جديدة، لوقع، ولا شكّ، في الدهش.

وكان يعقوب يعارض بولس ورسالته التي كانت تتضمّن تحديدًا جديدًا لهويّة إسرائيل ولدور الشريعة. وكان بولس يفكّر في جماعة موحّدة من يهود وغير يهود، تتجاوز حدود الدين اليهوديّ التقليديّة ونوعيّته. ولهذا السبب كثيرًا ما عُدَّ يعقوب رمز جماعة مسيحيّة متحجّرة، تعجز عن الشعور بطابع رسالة يسوع الجذريّ وبكلّ ما تنطوي عليه قيامته. ولكنّ الجماعات التي كانت تعترف بسلطته، حوالى السنة ٦٢، يوم سيق إلى العذاب، كانت تؤلّف، على الأرجح، أكثريّة العالم المسيحيّ الساحقة. وكان لموته تأثير شديد جدًّا في تلاميذ يسوع، ولا شكّ أنّ خراب الهيكل، بعد ذلك ببضع سنوات، وضع حدًّا لأوّليّة كنيسة أورشليم. فإنّ الدين المسيحيّ فقد مركز ثقله الجغرافيّ والروحيّ والتعليميّ. وازدادت كنائس أنطاكية ورومة والإسكندريّة استقلالًا ونفوذًا على مرّ الأيّام.

هذا وإنّ تدمير أورشليم في السنة ٧٠ أدّى، في آخر الأمر، إلى تهميش المسيحيّين المتهوّدين، في كنيسة تميل إلى أفكار بولس ويسيطر عليها غير اليهود. فإنّ المسيحيّين المتهوّدين الذين كانوا يطالبون بهويّتهم اليهوديّة كوّنوا مدّة طويلة إحدى الحركات التي كانت تجاهد للحصول على السيادة في داخل الجماعة اليهوديّة. لكنّ فرص نجاحهم تقلّصت على مرّ الأيّام. فالمشيح الذي كانوا ينادون به ما زال غير عائد، وكانت الحركة التي ترفع شعاره أشدّ ازدهارًا عند غير اليهود. فكان من شأن كلّ ذلك أن لا يساعد على رسالتهم لدى اليهود. ولمّا كادت البدعة أن تصبح غير محتمَلة، على أثر انتصار الحركة الربّانيّة، عدّهم أغلبيّة اليهود هراطقة.

من المفيد جدًّا أن نشير، كما فعل الكاتب، إلى أنّ المسيحيّين المتهوّدين

قد طُرِدوا، بواسطة «بِرْكة حَمّينيم» (بَرَكة الهراطقة)، من المجامع التي يسيطر عليها الربّانيّون، ورثة الفرّيسيّين. وبعد أن نبذتهم الجماعة اليهوديّة وأصبحوا غير مرتاحين يومًا بعد يوم في «الكنيسة الكبرى»، كان عليهم أن يختاروا بين ثلاثة: إمّا أن يعودوا إلى المجمع اليهوديّ، بالتخلّي عن إيمانهم بيسوع المسيح، وإمّا أن ينضمّوا إلى «الكنيسة الكبرى»، بالكفّ عن حفظ الشريعة الموسويّة، وإمّا أن يؤلّفوا جماعات منفصلة ومهمَّشة، لا تزال الشريعة محفوظة فيها. والذين اختاروا الحلّين الأوّلين لم يتركوا أيّ أثر. أمّا الذين تبنّوا الحلّ الثالث، فإنّنا نعرفهم باسم الإبيونيّين أو الناذوريّين. ولمّا كانوا بقايا متحجّرة من الكنيسة في أوّل عهدها، فإنّ «المسيحيّين» هم أيضًا عَدُّوهم هراطقة.

ولكنّهم لم يتواروا تمامًا من ساحة التاريخ. فإنّنا نراهم يعودون إلى الظهور لمناسبة نشأة الإسلام. فالكاتب يُكثر الاستشهاد بِهانْس - يواكيم شوبْس (Schoeps) الذي لا يشكّ في أنّ الإسلام تلقّى ميراث المسيحيّين المتهوّدين. فقد كتب: «لا شكّ في ارتباط محمّد بالمسيحيّة المتهوّدة (. . .). فإذا صحّ أنّ المسيحيّة المتهوّدة غابت عن الكنيسة المسيحيّة، فإنّها، بالمقابل، حُفظت في الإسلام ووجدت مكانها في بعض دوافعه التوجيهيّة»[٣].

إنّ النظريّات اللاهوتيّة التي يستند إليها المسيحيّون المتهوّدون ما زالت غير واضحة لنا، إذ ليس لدينا من شهادات مباشرة سوى بعض مقتطفات من الأناجيل التي كانوا يستعملونها، إلى جانب الأدب الإقليمنضيّ المنحول. ومن الراجح أنّ بعض مؤلّفات المسيحيّين المتهوّدين قد حُفظت بفضل اندماجها في بعض نصوص الإسلام. وقد تكون هذه حالة المصدر المسيحيّ المتهوّد الذي استعمله الكاتب المُسلم الذي وضع **إنجيل برنابا**، علمًا بأنّه لم يبقَ منه إلّا الترجمة الإيطاليّة التي تمّت في القرن السادس عشر[٤].

لا شكّ في أنّ صورة يعقوب ونفوذه قد تأثّرا إلى حدّ بعيد بتقلّبات المسيحيّة المتهوّدة. فبغض النظر عن الجماعات المسيحيّة المتهوّدة التي أعلت شأنه بوجه خاصّ، كان موضع إجلال في بعض الجماعات الغنوصيّة. وحتّى كنيسة أورشليم، التي كانت مؤلّفة من يهود وغير يهود، لم تكفّ عن إكرام يعقوب «أسقفها الأوّل». لكنّ «قادة الفكر في الكنيسة الكبرى»، على حدّ قول

---

(٣) Hans-Joachim SCHOEPS, *Theologie und Geschichte des Judenchristentums* Tübingen, 1949.

(٤) Luigi CIRILLO et Michel FRÉMEAUX, *Evangile de Barnabé*, Paris, Beauchesne, 1977.

بِرْنْهايم، أخذوا يرون فيه» مصدر متاعب (. . .)، إذ إنّ «أخا الربّ»، الذي لم يكن أحد الاثني عشر، كان لا يندرج بسهولة في مخطّط الخلافة الرسوليّة، وينسجم بصعوبة مع أوّليّة بطرس. فكان من غير الممكن أن يُعجبَ كنيسة يتحدّر أكثر أعضائها من أصل وثنيّ ومنفصلة عن الشريعة».

ويضيف الكاتب في سياق الكلام: «من الواضح أنّ يعقوب كان يتّجه في عكس التاريخ. فقُصِر دوره على دور ممثّل صامت. وطوالَ قرون وقرون، عاش عيشة خاملة، أخذت تتبدّد على وجه بطيء».

ومع أنّ هذا الكتاب ما زال يحتوي على عدّة مناطق محفوفة بالظلّ، فإنّه يأتي بتوضيح جذّاب لشخصيّة يعقوب الغامضة. ذلك بأنّ بطرس أنطوان بِرْنْهايم يستخدم جميع المصادر التي في متناوله، كما أنّه ينصرف إلى «إعادة الاعتبار» بمهارة وسعة اطّلاع، فيولّد عند القارئ تحمّسه للموضوع والرغبة في المزيد من المعرفة.

يعقوب وبطرس وبولس والآخرون

يدور الكلام عن يعقوب أيضًا في كتاب إتيان تْرُكْمِه (Etienne Trocmé)، الذي يضع أكبر زعماء الكنيسة الناشئة، أي يعقوب وبطرس وبولس، في إطار أوسع. وهو أيضًا يدافع عن بطل يكاد أن لا يحتاجَ إلى أن يعاد إليه اعتباره، علمًا بأنّ نفوذه كان ولا يزال ساطعًا، بما أنّ المقصود هو بولس. إنّ تْرُكْمِه، وهو اختصاصيّ معترَف به في العهد الجديد، وقد درّسه طوال عقود في جامعة إسْتْراسبورغ (Strasbourg)، يقدّم لنا، في كتابه **مهد المسيحيّة**، ببساطة لبقة، ثمرة أبحاثه وتفكيره، وهو يعيد إلى الحياة تاريخ «تلك الشيعة اليهوديّة الخاملة الذكر التي نشأت في فلسطين وتحوّلت، بعد مئة سنة من الحياة، إلى ديانة جديدة تمتاز إلى حدّ بعيد عن الدين اليهوديّ، وانضمّت إليها أكثريّة من مؤمنين متحدّرين من أصل وثنيّ».

إنّ موضوع الكتاب واضح، وهو أنّ الهويّة المسيحيّة لم تتكوّن من تلقاء نفسها ولا في لمحة نظر، بل في أثناء سياق طويل قام فيه حوار التنازع مع الدين اليهوديّ بدور بارز. فبوجه تدريجيّ «وبعد بدايات متردّدة، شعرت الجماعات المسيحيّة بنوعيّتها وهويّتها».

لم يجد المسيحيّون أيّة فائدة في الانفصال عن الدين اليهوديّ، من شدّة شعورهم بأنّهم جزء لا يتجزّأ من الشعب اليهوديّ. وإذا تمّ الانفصال مع ذلك، فلأنّ تحوّلًا في العمق قد طرأ على الدين اليهوديّ بعد خراب هيكل أورشليم في

السنة ٧٠. فبعد أن حُرم شعائره الدينيّة ومَقْدِسَه، وأُنذر بالانفجار، لم يقدر على البقاء إلّا بفضل إصلاح جذريّ قامت به مدرسة ربّانيّين فرّيسيّين (انسحبوا إلى مدينة جَمْنيا) سيطرت أفكارهم على كلّ الشتات تقريبًا في نحو عشرين سنة. ومنذ السنة ٩٠، تمّ التوافق بين أكثريّة المجامع الساحقة على أن يُبعدوا من الجماعات اليهوديّة جميع الخارجين على تعليم المصلحين، ومنهم المسيحيّين. ولم يجد أولئك المسيحيّون المبعَدون اتّزانًا جديدًا إلّا بمشقّة.

ويُثبت الكاتب أنّ المسيحيّة لم تكتشف نفسها إلّا في نهاية القرن الأوّل. ولذلك، فهو يصف بـ «مهد المسيحيّة ثلاثة أرباع القرن التي تلت موت يسوع على الصليب». ويضيف: «لا شكّ في أنّ المسيحيّة نشأت مع الإيمان بقيامة المسيح. ولكن، كما أنّ الولد لا يكتشف أنّه شخص مستقلّ إلّا بعد أن يكون قد عاش اختبارات كثيرة، كذلك لم يتوصّل دين المسيح إلى وعي نفسه إلّا بعد العديد من الأحداث، ولم يكن أقلّها أهمّيّةً حرمانه من الدين اليهوديّ الذي عاناه انطلاقًا من السنة ٩٠. ذلك بأنّ المسيحيّين كانوا يعتبرون أنفسهم يهودًا أو مؤيّدين للدين اليهوديّ، وكانوا كثيرين حول المجامع. ولا نستطيع أن نتفهّم مغامرتهم الروحيّة وأدبهم في ذلك الزمن، إلّا أن أدركنا هذه المعطيات».

بقلم رشيق، يعرض تَرْكُمِه فكره الصافي المهذّب، الناشئ عن إقبال طويل جدًّا على نصوص العهد الجديد، ويرسم، في ٢٨٠ صفحة من نصّ يكثر فيه البياض، لوحة بديعة من تاريخ المسيحيّين الأوّلين، لا يخشى فيها أن يُهمل الأفكار الدارجة والقضايا القائمة على الأكثريّة. فهو ينسب إلى إسّينيّي قمران تأثيرًا شديدًا في المسيحيّة الناشئة (مجموعات رتب، وستائر دينيّة، وصيغ مؤسّسيّة، وقراءة الأسفار المقدّسة، والألقاب المشيحيّة المطلَقة على يسوع، وينسب إلى الهلينيّين دورًا حاسمًا ابتداءً من طردهم من أورشليم وهجرتهم إلى أنطاكية التي افتتحت الإرساليّة في خارج الدين اليهوديّ. لكنّه يخصّ ببولس الرسول جزء الكتاب المركزيّ. إنّ الكاتب يكنّ إعجابًا واضحًا بذلك الموهوب الفذّ الذي ظهر عند نشأة الدين المسيحيّ، بهرطوقيّ المجمع، بالمنشقّ، بالعائش على هامش المجتمع، باللاّهوتيّ المنقطع النظير»(٥). فالنزاع مع جناح المسيحيّة المتهوّد، الذي تبلور في النزاع مع بطرس في أنطاكية، أدّى عند بولس إلى اتّخاذ موقف متشدّد، إذ إنّه انقطع عن يعقوب وبطرس انقطاعًا عنيفًا وطوّر استراتيجيّة إرساليّة تقطع الروابط مع المجمع. ونحن نعرف أنّ هذه الاستراتيجيّة

---

(٥) Daniel MARGUERAT, *Le Monde de la Bible*, 1997, 105, 64-65.

لقيت نجاحًا في آسية الصغرى وفي اليونان.

السنوات ٦٠-٧٠

في مطلع الستّينات، كانت الكنيسة المسيحيّة مجموعة متواضعة الحجم ومنظّمة تنظيمًا متينًا إلى حدٍّ ما حول أورشليم. وفي حضن يهوديّة زمنها، كانت تؤلّف أقلّيّة صغيرة متّقدة نشاطًا ولها تأثير حقيقيّ في الرأي العامّ اليهوديّ، وكان يعقوب رئيسها يتمتّع بجاه واسع جدًّا لدى الشعب نظرًا إلى تقواه المثاليّة. وكانت كنائس الشتات تعترف له بأوّليّة تعليميّة وتنظيميّة تامّة. وفي هذا الأمر، تلتقي نظريّات ترُكمِه ويِرْنهايْم تمامًا.

وكان الهلّينيّون، الذين قطعوا الروابط مع أورشليم قبل ذلك بربع قرن، يعيشون على الشاطئ السوريّ الفينيقيّ، ولكنّهم فقدوا الكثير من اندفاعهم الأوّل. أمّا الكنائس التي أسّسها بولس، فإنّها كانت حائرة جدًّا بسبب سَجْن رسولها، ثمّ موته (حوالى ٦٢-٦٤). فكانت، هي أيضًا، خفيفة الوزن.

فوقعت سلسلة أحداث مأسويّة ما لبثت أن زعزعت البناء الذي كان من شأن موت بولس، الرفضيّ الأكبر، أن يدعّمه، على ما يبدو. وكانت أولى حلقة من السلسلة مقتل يعقوب في السنة ٦٢. فكانت الضربة عنيفة للكنيسة، لأنّها كانت تستمدّ قدرًا كبيرًا من جاهها من حضور شخصيّة قريبة من يسوع، ومشهورة بتقواها، على رأسها. وحاول أعضاؤها المحافظة على المؤسّسة فاختاروا، مكان يعقوب، سمعان بن قلوبا، خال يسوع، لكنّه لم يحظَ بسلطة سلفه. وبعد ذلك، يبدو أنّ أبناء يهوذا، وهو أخ آخر من «إخوة» يسوع، مارسوا سلطة أسقفيّة جماعيّة.

لكنّ موت يعقوب، والتردُّد في خلافته، والتزعزع الذي سبّبته الحرب اليهوديّة وعواقبها، قضت على وضع كنيسة أورشليم المسيطِر. ومن جهة أخرى، استُشهد بطرس قبل نهاية الستّينات ولم يخلفه مَن يساويه في سعة النّطاق. أمّا مسيحيّو رومة، فقد أهلك اضطهاد نيرون عددًا كبيرًا منهم.

ففي حوالى السنة ٧٠، خسرت الكنائس المسيحيّة أبطال الجيل الأوّل الثلاثة، يعقوب وبطرس وبولس. ومع ذلك، فإنّ التزعزع الذي عانته تلك المجموعة المسيحيّة الصغيرة لم يكن له وزن بالنسبة إلى التزعزع الذي كان الدين اليهوديّ يعانيه: فهناك خراب الهيكل، ونهاية العبادة الذبائحيّة، ووقوف الحجّ إلى الهيكل. لكنّ المبادرات التي اتّخذها ربّاني عجوز، يوحنّان بن زكّاي، أنقذت صيغة معيّنة من الدين اليهوديّ من الانحلال والتشتّت... فبعد

أن دمّرت الحرب اليهوديّة سائر أحزاب الدين اليهوديّ الفلسطينيّ (الصدّوقيّين والغيورين والأسّينيّين)، لم يبقَ من الدين اليهوديّ إلّا الصيغة الفرّيسيّة، وقد أبعد عن المجامع أنصار يسوع المسيح. وعندئذ فقط، بدأت يقظة تدريجيّة لورثة بولس وانطلق نوع من الهجوم المعاكس عن يد المسيحيّين.

نهاية القرن الأوّل

في حوالى السنة ١٠٠، كادت الروابط التي تجمع بين الكنائس المسيحيّة والمجامع أن تنقطع في كلّ مكان. والسلطات الرومانيّة نفسها لم تعد تخلط بين المسيحيّين واليهود، بل كانت تضطهد المسيحيّين عن بصيرة.

وفي تلك الأيّام، أخذت مؤلّفات يوحنّا تظهر بمظهرها النهائيّ، وقد لخّصها تْرُكْمِه تلخيصًا انتقاديًّا بديعًا، فكتب: «إنّ الإبعاد عن المجامع، والتنافس مع تلاميذ المعمدان، والتقرُّب الذي أصبح محتّمًا من الجماعات الناشئة عن عمل بولس، دفعت كلُّها إلى تحرير الإنجيل الرابع في حوالى السنوات ١٠٠-١١٠. فإنّ تلاميذ يوحنّا أرادوا أن يعبّروا عن حساسيّتهم وعن مسيحانيّتهم في عمل أدبيّ على جانب كبير من الأهمّيّة. هذا وإنّ كاتب الإنجيل الرابع (الذي كثيرًا ما يستعمل كلمة «يهود» للدلالة على خصوم يسوع ومحاوريه) هو، بالرغم من جذور فكره اليهوديّة، خارج عن يهوديّة زمنه، التي استعاد مُصلِحو جَمْنيا السيطرة عليها واعتبروها أكبر خصوم الدين المسيحيّ».

إنّ القرن الأوّل من تاريخ المسيحيّة تأثّر بعدّة مراحل حاسمة بقدر ما كانت غير منتظرة، وهي موت يسوع الباكر، وتراائيات القائم من الموت، وإقامة التلاميذ في أورشليم، والصّدمات التي كان الهلّينيّون سببها، وانفصال بولس عن الكنيسة الكبرى، والعاصفة الرهيبة التي عرفتها الستّينات، وإنعاش الدين اليهوديّ عن يد المدرسة الربّانيّة، وإبعاد «المينيم»(٦) عن المجامع في حوالى السنوات ٩٠-١٠٠، وافتتاح النقاش الكبير حول إدماج الدين المسيحيّ في حضن المجتمع اليونانيّ الرومانيّ. ففي حوالى السنة ١٠٠، عدل المسيحيّون عن الظهور بمظهر أشدّ اليهود أصالة. فلقد قاموا باختيارات عصيبة أليمة، ولكنّها كانت حاسمة للمستقبل. واتّخذت مسيحانيّتهم ولاهوتهم الكنسيّ صيغتهما النهائيّة. «فاقتربت سنّ البلوغ في المسيحيّة، بما فيها من مشاكل جديدة. وهذا ما يعني أنّ طفولتها قد انتهت».

---

(٦) كلمة تدلّ على شيع يهوديّة مختلفة (الصدّوقيّين والسامريّين والناذوريّين).

إنّ نصّ تِرُكْمِه هو عمل تلخيصٍ جريءٌ باعتداله، يكاد أن يكون كلّه قائمًا على المصادر المقتبسة من العهد الجديد، وقد ربط بعضها ببعض بمهارة. وحاول أن يستعيد القطع الناقصة بدقّة وحكمة، ولكنّه لم يَخْشَ أن يشقّ سبلًا جديدة. أمّا بناؤه التاريخيّ فهو إعادة بناء يأخذ بعين الاعتبار تعدّد التيّارات وتنوّعها في نشأة المسيحيّة. ولكن يجوز لنا أن نأخذ عليه عدم توقّفه الكافي عند مختلف المسيحانيّات التي وُضعت في أثناء القرن المسيحيّ الأوّل، في حين يعرضها پِرّو ويحلّلها بوضوح كبير، في كتاب حديث[٧]. إلّا أنّ تلك النظرة الشاملة لم تكن تسمح له، على ما يبدو، بأن يطيل الكلام على التوسّعات اللاهوتيّة والمسيحانيّة، فإنّه يشدّد، قبل كلّ شيء، على أنّ المسيحيّة لم تصل إلى وضع الديانة المستقلّة إلّا في منتصف القرن الثاني، حين أنجز الآباء المدافعون عن الدين تحريرها من رَحِمِها اليهوديّة. ففي الواقع، لم تَتَلاشَ التنازعات التي عُرفت قبل خراب الهيكل دفعةً واحدة، حتّى وإن نسي التاريخ الخلافات التي قامت في وقت لاحق. وفي آخر الأمر، جَمَعَ التقليد الذي ظهر بعد الرسل بين بطرس وبولس مبديًا تجاه كلّ منهما الحماسة نفسها، وأدّى إلى وضع مسيحانيّة قانونيّة.

ولكن ماذا حلّ بشخصيّة يعقوب، التي دافع عنها بِرْنهايْم وأشْهَرَها، وبأنصار التقليد المسيحيّ المتهوّد (أو بالأحرى بالتقاليد المسيحيّة المتهوّدة، لأنّه، على غرار اليهوديّة المحيطة، لم يكن من كتلة واحدة)، الذين لم يُرَدّوا عن «انحرافاتهم»؟ مئات من الأبحاث كُرِّست للمسيحيّة المتهوّدة ولتقلّباتها المستقيمة أو المتشيّعة، نذكر منها بوجه خاصّ أبحاث جان دانييلو (Daniélou). إن كان القارئ على عجلة وكان مهتمًّا بأن يطّلع على ما آل إليه هذا المسار، فإنّه يستطيع أن يرجع إلى النُبَذ عن «الناذوريّين والأبيونيّين» التي وردت في ملحق لكتاب پِرّو[٨] الذي سبق ذكره.

في النقطة التي يتمّ فيها الوصل بين التاريخ والتفسير الكتابيّ واللاهوت، لا شكّ أنّ «مهد» المسيحيّة سيبقى موضوع أبحاث لا يُحصى عددها.

---

(٧) Charles PERROT, *Jésus, Christ et Seigneur des Premiers Chrétiens, une christologie exégétique*. Collection «Jésus et Jésus-Christ», n°70, Paris, Desclée, 1997, 322 pages.

(٨) المرجع نفسه.